Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر في المصادر الأجنبية

د. محمود أحمد الديك*

إن مناقشة أو دراسة أي موضوع تاريخي أو نحوه نتساءل دائماً عن المصادر التي اعتمد عليها الباحث في دراسته. وكلما استند الباحث على الوثائق المصدرية أعطى للدراسة قوة، وتكون أكثر واقعية، فلا تاريخ بدون وثائق. والمادة الوثائقية الأرشيفية تتضمن: «الأوامر والمراسيم والقرارات والمعاهدات، وتقارير القناصل ومذكرات الرحالة والتجار ... إلخ. وإلى جانب دور الوثائق والأراشيف توجد المكتبات أو التي يطلق عليها دور الكتب الوطنية التي تحتفظ بإعداد هائلة من المخطوطات والوثائق والكتب والدوريات ...».

فالمادة الوثائقية التاريخية التي توجد بالأراشيف الأجنبية وهي موضوع اهتمامنا، تضم عشرات الآلاف من الوثائق الرسمية وغير الرسمية من مراسلات شخصية ونحوها، تحتوي على مواضيع متنوعة ومختلفة من حيث الكم والقيمة، وتغطي الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبشيء قليل جداً الجانب الثقافي لتاريخ ليبيا لقرون قد خلت. غير أننا ننبه أنه ينبغي التعامل مع هذه المادة الأجنبية بشيء من الحذر والحيطة، وكذلك وضعها على محك الدراسة المنهجية النقدية، فإلى جانب أهميتها كمصدر أولي أحيانا فهي دون شك لا تخلو من المبالغات والمغالطات والأغراض السياسية[1].

---

* جامعة الفاتح.

1- كان في مخطط اللجنة المشرفة على تنظيم هذه الندوة تكليف لجنة علمية من باحثين متخصصين في اللغات الأجنبية السفر لبعض الدول الأفريقية والأوربية، التي يتوقع أن تتوفر فيها معلومات عن =

ولا شك أنه رغم الجهود التي بذلت من قبل الباحثين الذين تناولوا تاريخ ليبيا الحديث، فهناك الكثير من المسائل والقضايا الفكرية، لا زالت تحتاج للمزيد من البحث والتقصي والدراسة في ظل توافر المعلومات الوثائقية التي تنتظر الباحثين في داخل البلاد وخارجها، إضافة إلى تطور المنهج العلمي في تناول مثل هذه القضايا. فإذا أضفنا لما هو متوفر هنا في ليبيا والمتناثر والمخزن لدى الأفراد والعائلات في المدن والقرى والواحات، علاوة لما هو موجود من الوثائق في إسطنبول وإيطاليا وفرنسا ومالطا وألمانيا وغيرها كثير محفوظ ومتوفر في بعض البلدان العربية. هذا الكم الضخم من المادة العلمية المصدرية، لا شك أن مجرد التفكير في عمل فهارس له، سيحتاج إلى جهود وإمكانيات مؤسسات ومراكز علمية متطورة، وربما نتساءل لو جمعنا هذا العدد الهائل من المادة الوثائقية، أي أرشيف مركزي للدولة الليبية قادر على أن يضم ويستوعب تاريخ البلاد وإرثها الثقافي مع ضرورة الاحتفاظ بالأرشيفات الإقليمية في المدن الكبيرة.

وإذا كان الحديث منصباً على ليبيا بالمفهوم الجيوساسي الحالي، الذي تحددت معالمه مع قدوم العثمانيين في منتصف القرن السادس عشر، فإنه قبل هذا التاريخ كانت ليبيا تتأرجح تبعيتها السياسية وفقاً لقوة الحكومة المركزية في الجناحين المشرقي والمغربي. فالمنطقة الشرقية خضعت لمصر ردحاً من الزمن وكذا المنطقة الغربية كانت خاضعة لتونس، فهاتان الدولتان كانتا تمثلان ثقلاً جيوساسياً، وتأسست فيهما الحواضر والعواصم السياسية الحضارية في العهود الإسلامية السابقة. والجدير بالذكر أن الموقع الجغرافي لليبيا لا يعتبر عامل جذب واستقرار على مدى القرون الماضية باستثناء الشريط الساحلي والواحات الجنوبية، فهي أقرب لمنطقة عبور لتجارة القوافل البرية والبحرية.

فالشأن الثقافي والاهتمام به باستمرار تحكمه عوامل اقتصادية واستقرار سياسي بالدرجة الأولى، وقد يكون ذلك غير متحقق في هذه الرقعة بشكل مستمر إلا مع نهايات القرن التاسع عشر. ومع ذلك، فالرصيد المعرفي في ليبيا يتطلب حصراً كاملاً وإعادة تقييم حتى في القرون البعيدة.

=

الزاوية الأسمرية، وقد حددت مهمتي في فرنسا، لكن الظروف المالية حالت دون تحقيق هذا الهدف، لهذا اكتفى الباحث مؤقتاً الاطلاع على بعض الكتب الأجنبية المترجمة.

وإن دراسة تاريخ ليبيا بمعزل عن المؤثرات الخارجية العربية والأجنبية يبقى ضرباً من المستحيل، فليبيا كانت وباستمرار ماضياً وحاضراً ومستقبلاً مؤثرة وتتأثر في الأحداث وتتفاعل معها متوسطياً وأفريقيا وعربياً ودولياً. ونعتقد أن دراسة الموضوعات التاريخية تشهد تطوراً منهجياً في طريقة تناول القضايا الدقيقة والتخصصية الكلية والجزئية، فدراسة العلاقات الثنائية بين بلدين أو شعبين شيء إيجابي يعطي الصورة الكاملة نسبياً في معرفة أبعادها وتأثيرها على المستوى الإقليمي والدولي.

إن دراسة التاريخ عموما والثقافي بشكل خاص في ليبيا في العصر الحديث والمعاصر، يتطلب مراجعة ودراسة الموروث المحلي أولاً، ثم تناول ما رصدته الأقلام الأجنبية، من تقارير القناصل، وما دونه الرحالة والتجار من معلومات في وصفهم للبلدان والمدن والقرى التي مروا بها أو زاروها أو سمعوا عنها. ولا شك أن المصادر الأوربية ينبغي أن تدرس بعناية وبمنهجية علمية لما لحق بها من تشويه مقصود أو عفوي خصوصاً التي باتت تعرف بأدب الرحلات، وإن كانت قد اعتمدت في مصادرها الأولية في أغلب الأحوال على الرحالة العرب الذين جابوا الديار وما قدموه من معلومات تفصيلية وتقريرية هي غاية في الأهمية، ولا شك أنه قد استفاد منها باحثون لاحقون عرب كانوا أو أجانب. ومن جهة أخرى سنحاول في هذه الدراسة تتبع ثقافة المستشرقين الأجانب ومدى تمكنهم وإتقانهم اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ومعرفة ظروف اتصالهم واحتكاكهم ببعض المثقفين الليبيين، وكيفية اطلاعهم على المخطوطات والوثائق النادرة التي تهتم بالشأن الثقافي التي كونت رافداً أساسياً في مؤلفاتهم وأعمالهم العلمية.

وقبل الحكم على القيمة العلمية على المؤلفات التي تركها أصحابها والتي تناولت تاريخ ليبيا الحديث، من المهم التعرف على اهتمامها وأي من الموضوعات التي تناولتها بشكل تفصيلي أو التي تم إهمالها وخصوصاً الجانب الثقافي موضوع دراستنا. من هنا تبرز عدة تساؤلات. هل ما هو منشور ومتاح من كتب أجنبية ومترجمة يتناول الحياة الثقافية بشكل مرضي وموضوعي، أو ربما ما خفي كان أعظم وأهم؟ ثم هل علينا أن نناقش ونقيم من هم الذين تناولوا هذا التاريخ، وما هو تكوينهم الثقافي، وما هي انشغالاتهم، وهل يتبعون مدارس فكرية، أو جمعيات محددة الأهداف والغايات، وهل يتحرك هؤلاء من واقع مناهج وأفكار مسبقة ذات نزعات عنصرية لا تعير انتباهاً للشأن الثقافي المحلي؟. هذه التساؤلات وغيرها لا ندعي الإحاطة بإجابة عنها ولكنها مشروع يشغل بال كل الباحثين؟

وفي دراسة جادة للباحث عمار اجحيدر بالشأن الثقافي يطرح إشكالية مفادها أن حجم الوثائق التي تعود إلى العهد القرمانلي قليل جداً إذا ما قيس بالكم الهائل بوثائق العهد العثماني الثاني، فكيف هو الحال إذا عدنا للعهد العثماني الأول 1550-1711 وما فيها من تقلبات واضطرابات سياسية وإهمال للجانب المعرفي، فالصورة الثقافية غير واضحة المعالم. وحتى العهد القرمانلي فالجانب الثقافي لم يشكل أهمية بالمقارنة بالنشاط البحري.

وأما فيما يتعلق بمرحلة العهد العثماني الثاني، فقد شهدت في العقدين الآخرين نوعاً من الاهتمام بالجانب التعليمي الرسمي والأهلي في إطار الإصلاحات والتنظيمات للدولة العثمانية. لكن هذه المؤسسات الثقافية بمختلف مستوياتها وتنوعها المعرفي، توقفت بشكل نهائي خلال فترة المقاومة، وبمجرد نزول قوات الاستعمار الإيطالي عبث المحتل بمحتويات القلعة وبالمكتبات والزوايا في مدينة طرابلس وبقية القرى والمدن، وقد ضاعت الكثير من الوثائق: من « مراسلات وفرمانات وأوامر، ورسائل تتعلق بالعلماء ومؤسساتهم التعليمية ».

فالوثائق والمخطوطات المتبقية في بعض المكتبات الخاصة والعامة تدل على انتشار المعرفة والثقافة، وقد يكون من الصعوبة تحديد إطار واضح المعالم للناحية الثقافية خصوصاً في الفترة الأولى من الحكم العثماني[2]. تلك المرحلة اتسمت بالتأسيس والبناء وكان التركيز على المدن الكبرى وحسب الأهمية وحظيت مدينة طرابلس باهتمام كبير للحكام العثمانيين لما تمثله وتوفره من مصادر اقتصادية بحكم موقعها الجغرافي كحلقة وصل لمختلف الاتجاهات نحو المراكز التجارية حيث شيدت فيها العمران من فنادق وأسواق واستقر بها التجار الأجانب[3]. وفي هذه الظروف الصعبة ظهر نجم عبد السلام الأسمر في مدينة زليتن التي تقع شرقي مدينة طرابلس بحوالي 150 كيلومتر، عبر المشهد الثقافي بسمات ذلك العصر، فهل ستكشف الأيام معلومات

2- عمار جحيدر، الحياة الثقافية في ليبيا في العهد القرمانلي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2003، ص 25.

3- خليفة التليس، حكاية مدينة، طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، 1974، ص70-80.

تزيل تلك الغشاوة والضبابية عن تلك المرحلة[4].

ومن خلال اطلاعنا المحدود على العشرات من الكتب المترجمة التي وقفنا عليها، كتبت بأقلام أجنبية وبمختلف اللغات، والتي تناولت معلومات عن الشيخ عبد السلام الأسمر وزاويته ودورها الثقافي، اتضح لنا وجود العديد من الثغرات التي يصعب إيجاد تفسير لها، خصوصاً أن بعضها كان أصحابها من المستشرقين والجميع يعرف مدارس الاستشراق التي اهتمت بالأدب والتراث العربي عقب الحروب الصليبية حيث نقلوا وترجموا الكثير من العلوم التي استفادوا منها في النهضة الأوربية. لكن الحال يختلف حين تعامل هؤلاء مع تاريخ ليبيا الثقافي، نراهم يتجاهلون تناول هذا الموضوع حتى مجرد وصفه أو نقده. سؤال يتطلب البحث والتعمق في هذه الإشكالية.

من المهم توضيح أن زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر رغم تواضع إمكانياتها قد أدت دوراً مهماً كمنارة شرعية قياساً بعصرها ومقارنة بالمراكز الثقافية الكبرى المشهورة التي تأسست سواء في المشرق أو في المغرب العربي الإسلامي. كانت وظيفة الزاوية الأساسية تحفيظ كلام الله (القرآن الكريم) وتعليم أصول الدين للطلاب، وكانت لها فروعا وأتباعا (مريدين). وقد تزامن تأسيس الزاوية مع السيطرة العثمانية على أغلب المنطقة العربية، ولم يكن للسلطة المركزية مواقف ثابتة حيال الطرق الصوفية بشكل عام. وسيتم في هذه الدراسة تناول اهتمام الاستعمار الإيطالي بهذه الزاوية من الناحية الثقافية وما مدى تقديس واحترام الخوارق والكرامات التي ألصقها بعض أتباع عبد السلام الأسمر حوله. ومن خلال اطلاعنا على بعض المصادر الأجنبية التي اهتمت بتاريخ ليبيا منذ تأسيس الزاوية في القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن العشرين،

4- إن الدراسات التي تناولت سيرة الشيخ عبد السلام الأسمر والمنشورة يصعب حصرها لعدم وجود فهارس تبين ذلك لكننا نذكر بعضها مثل: دراسة مصطفى عمران بن رابعة، حول رسائل الأسمر عبد السلام بن سليم الإدريسي الحسني إلى مريده، دار المدار الإسلامي، 2003، وكذلك ودراسة أخرى: للصديق يعقوب، تناول فيها (زاوية الشيخ بزليطن مسيرة علمية عمرها أربعة قرون ومركب الثقافة الإسلامية فريد) 1988، وعدد كبير من الدراسات والمقالات تناولت سيرة الشيخ ودور الزاوية، والجدير بالذكر التنويه أن آخر ما وصلنا في هذا الموضوع ما حبره الباحث المتميز رحومة حسين بوكرحومة سنة 2006، حول الزاوية الأسمرية العلمية بزليتن ودورها التربوي في ليبيا 1935-1957. ونعتقد أن انعقاد مثل هذا المؤتمر العلمي سيفتح الآفاق للباحثين تعميق الدراسات الجادة مستقبلا عن تاريخ ليبيا الثقافي بما تجود به المادة المصدرية العربية والأجنبية.

سترتكز الدراسة على تقيم ونقد للمصادر الأجنبية في كيفية تناولها لهذه الزاوية ولشيخها مقارنة بالطرق الصوفية اللاحقة التي كثر عنها الحديث[5].

وإذا تحدثنا عن نشاط الرحالة الأجانب على مختلف جنسياتهم وما عثرنا عليه من معلومات نقلا عن كتب مترجمة حتى الآن لا قيمة له بشأن الجانب الثقافي، رغم أنهم طافوا ربوع البلاد طولا وعرضاً، صحيح أن جل اهتمامهم انصب على منطقة شمال جنوب، حيث دونوا مشاهداتهم وملاحظتهم التي تعنيهم في مختلف مناحي نشاط السكان، منذ مطلع القرن الثامن عشر، وحتى نهاية القرن العشرين كان أغلبهم يتجاهل تناول الحياة الثقافية في ليبيا. في حين نجدهم يهتمون بالتاريخ الروماني واليوناني من الناحية الأثرية وتتبع بقايا الكنائس المسيحية، ويهتمون بدراسة النباتات والأمراض والمعادن والطبوغرافية أو بدراسة الأحوال السياسية والاقتصادية بشيء من التفصيل.

فعلى سبيل المثال نجد الرحالة الألماني المشهور بارث أثناء جولاته عبر البلدان المتاخمة لشواطئ البحر المتوسط خلال السنوات 1845-1847، يقول أنه وصل مدينة زليطن في 18 أبريل سنة 1846 ويتحدث عن مصطفى بك وثرائه وقوته ويقول إنه كان يستفيد من قربه من ضريح المرابط المبجل عبد السلام الأسمر[6]. وكذلك الرحالة الألماني رولفس أثناء تجواله من طرابلس إلى الإسكندرية مستخدما طريق البر ليصل مدينة لبدة الأثرية ويقدم لها وصفاً دقيقاً ولم يمد ببصره لبضعة كيلومترات ليتناول زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر حتى بالنذر اليسير.

ومن المؤكد أن العديد من المصادر التي تتعلق بتاريخ ليبيا في مختلف العصور تقبع في الأرشيفات والمتاحف العالمية. نشير لبعض منها:

فالمتحف البريطاني بلندن من بين مقتنياته مخطوطة للمؤلف الليبي ابن إسحاق الإجدابي بعنوان (كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ)، وتوجد نسخ أخرى مطابقة بما هو موجود في المكتبة الوطنية بباريس، وأخرى بمكتبة لينغراد في روسيا، أما مخطوط (النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية) للشيخ أحمد زروق محفوظة بمكتبة برلين تحت رقم 509.

5- الزاوية هي الركن الذي ينزوي فيه في مكان ما، وأصبح مكاناً لحلقات الذكر، وتطور ليصبح معلماً ومنارة ثقافية.

6- وردت هذه المعلومة من الأستاذ الدكتور عماد الدين غانم نقلاً عن رحلة بارث 1845-1847.

ومن بين القناصل الفرنسيين الذين ساهموا بنقل العديد من المخطوطات، القنصل الفرنسي روسو Rousseau (1825–1830) الذي كان متبحراً في آداب العرب وتاريخهم الإسلامي وهو من المستشرقين الذي لهم ولع خاص بجمع المخطوطات، فقد استطاع روسو أن يجمع كمية هائلة من المخطوطات الليبية، وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن هذا القنصل حين غادر البلاد سنة 1829، كان بحوزته عدد 460 مخطوطاً حصل عليها بطرق وأساليب غير شرعية، وقد ضاع منها 424 مخطوط بسبب رطوبة البحر أثناء عودته من طرابلس إلى مرسيليا، أما ما تبقى فقد تم بيعها في فرنسا بالمزاد العلني(7). وتشير بعض المصادر إلى أن روسو كان لا يتخلى عن أي مخطوط يستعيره من المثقفين الليبيين أثناء إقامته في ليبيا.

ومن خلال مراجعة مخطوط لكتاب التذكار لابن غلبون قام باقتنائه القنصل الفرنسي شارل فيرو واعتمد عليه في تأليف كتابه الحوليات الليبية ونقله سراً إلى باريس فتملكته منذئذ المكتبة الوطنية الفرنسية(8). وإنه لا غنى لأي باحث يعنى بتاريخ ليبيا الحديث الرجوع لكتاب الحوليات الليبية لشارل فيرو، وإن هذا الكتاب اتبع نمط الحوليات أي سرد الأحداث سنة بسنة وأحيانا لعدة أشهر، فحصل على السبق في دراسة تاريخ ليبيا بهذه الموسوعية، فهو غني بالمعلومات ومزدحم بالتفاصيل، اعتمدت عليه معظم الدراسات في التاريخ الحديث، ولا تزال معلوماته وتفسيراته مهمة وصالحة حتى هذا اليوم. وينبغي التنبيه أن على الباحثين التعامل مع الأحداث التي تناولها المؤلف بفطنة وإدراك من خلال تحامله على الشخصيات وتفسيراته التي يشتم منها الروح الاستعلائية الغربية إزاء المجتمع الشرقي.

وإن الدراسة الفاحصة لمحتويات الكتاب والمعلومات التفصيلية التي سطرها المؤلف نفسه من المؤكد أنه استطاع الاطلاع على المصادر المحلية والأجنبية المكتوبة والشفهية دون عناء بحكم قدرته على الاتصال بالمثقفين والعلماء والفقهاء وعامة الناس الذين التقى بهم بشكل مباشر دون حاجة إلى مترجم لكنه تنكر لدورهم ولفضلهم في تمكينه من الحصول على المعلومات المصدرية. وإن وظيفته كدبلوماسي لدولة كبرى

7- البرون الفونص روسو، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، 1992، ص 23.

8- شارل فيرو، المصدر السابق، ص 10.

مثل فرنسا مكنته من توفير غطاء وستار للمهمة التي كلف بها. فالظروف السياسية الصعبة التي وجد المؤلف فيها نفسه في طرابلس تزامنت مع أحداث خطيرة في منطقة المغرب العربي كان لها دور فيها ونعني بها مرحلة تاريخ استعمار فرنسا للجزائر سنة 1830، وتطلع فرنسا للسيطرة على تونس، وما نجم عن ذلك من صحوة إسلامية تزعمتها الطرق الصوفية وما كانت تشكله ليبيا من قاعدة خلفية وخطر متمثلاً في السلطة العثمانية التي كانت تتخوف من التوسع الفرنسي في أفريقيا، وكان عامة الناس كارهين للاستعمار الفرنسي، لأنه كان سبباً في تدهور أحوال تجارة القوافل بين المراكز التجارية. وإزاء هذه التطورات كانت الحكومة الفرنسية في حاجة ملحة لجمع كل المعلومات عن ليبيا وما سيترتب عليها من تفاقم للأحداث نتيجة الصحوة الإسلامية التي كانت تعمل في غير صالح الوجود الفرنسي في المغرب العربي. فمؤلف الحوليات لم يترك شاردة ولا واردة إلا قمشها في مصنفه. ومن أهم المؤلفات التي اطلع عليها (شارل فيرو) وكانت له خير معين دشن به مؤلفه؛ كتاب ابن غلبون (التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار)، كما تمكن من استعارة مخطوط أحمد النائب الأنصاري (المنهل في تاريخ طرابلس الغرب)، لكن الغريب في الأمر أنه لم يشر إلى أي منهما.

وحين بحثنا عن ذكر لزاوية الأسمر ودورها في كتاب الحوليات، لم يتفضل شارل فيرو علينا سوى ببعض الجمل المدسوسة في الصفحة 108، على النحو التالي: « كان مراد آغا أول حاكم عثماني على ولاية طرابلس الغرب عاصر شيخنا عبد السلام الأسمر، وحين أصبح هذا الحاكم شيخاً هرماً، لم يعد يهتم سوى بالأعمال الصالحة والخيرية، وأخذ بنصائح المرابط (عبد السلام الأسمر الزليطني)، فإنه أوقف جميع أملاكه الصالحة على بناء المساجد والزوايا والكتاتيب، ومن بينها جامع تاجوراء الذي سمي باسمه». ولم يذكر فيرو أي شيء من مناقب زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر.

ويشير شارل فيرو في موضع آخر إلى حادثة وقعت سنة 1867، حين شب حريق بكنيس اليهود ببلدة زليتن، وبالنظر لعلاقة باشا طرابلس المتميزة بالقنصل الفرنسي بوتا الذي كان يدعي حماية الجاليات الأجنبية فقد طلب القنصل التدخل في التحقيق بهذه المسألة، وتم القبض على بعض الشخصيات ببلدة زليطن، وخلصت التحقيقات أن مدبري الحريق أشاعوا أن المرابط عبد السلام الأسمر قد نهض من ضريحه الواقع قرب الكنيس، وقام بنفسه بإشعال النار في المصلى اليهودي، وأدلى كثير

من الأهالي بهذه الشهادة وأنهم رأوا بأم أعينهم الشيخ وهو يشعل النار. لكن التحقيق بين بطلان هذا الادعاء وتم القبض على الفاعلين، وكانت القضية لا تخرج عن كونها تنافس بين التجار العرب واليهود وأن فتح المعبد اليهودي قد يدفع إلى تشجيع التجار اليهود الاستيطان بالبلدة وربما سيسيطرون على مقاليد التجارة فيها[9].

ويمضي فيرو في تجاهله لدور هذه الزوايا في ثنايا مؤلفه، حتى يصل بنا إلى آخر فقرة في كتابه عند الصفحة 519 بقوله: إن أنباء مؤتمر برلين لسنة 1884-1885 لتقسيم أفريقيا، قد تمخضت عنه احتمال قيام فرنسا باحتلال تونس وطرابلس الغرب، ويشير فيرو أن الأوضاع كانت متردية في البلاد، وأن الأهالي لم يندهشوا لمثل تلك الإشاعة بل إنهم كانوا يتوقعون هذا الحدث. ويدعي أن المرابط سيدي عبد السلام الأسمر الذي عاش قبل قرنين من الزمان- قد سبق له وأن تنبأ بأن البلاد ستقع يوماً في أيدي النصارى. وهو بذلك يحاول أن يسبغ على تاريخ المنطقة بتفسيرات غيبية قدرية، وينسب للولي ما لم يقله؛ لأن ذلك رجماً بالغيب وحاشا لأولياء الله الصالحين أن يتفوهوا بذلك[10]. وهذا يتناقض مع إدراك فيرو نفسه في تقارير أخرى أن الليبيين كانوا متضامنين مع المقاومة في الجزائر، ومن الطبيعي أن يكون شعورهم معادي لفرنسا التي تهدف للسيطرة على تونس، وقد طلب الأهالي من الباشا العثماني دعم المقاومة في تونس بالسلاح وتأزمت العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية، فالحدود الغربية لليبيا باتت تشكل تهديداً خطيراً للوجود الفرنسي في مستعمراتها في شمال ووسط القارة الأفريقية.

من المفيد ذكره أن الطريقة السنوسية حين رفعت لواء الجهاد ومقاومة الغزو الفرنسي في تشاد ثم مقاومة الاستعمار الإيطالي في ليبيا، قبل أن تسيس وتنحرف عن أهدافها الأولى في البناء التثقيفي الديني، كان الأوربيون يحسبون لها ألف حساب، واهتم بها القناصل كجزء من مهامهم التجسسية وانشغل بها بعض الرحالة، وألفت حولها الكثير من المقالات والكتب في صورة مضخمة ومبالغ فيها، إذ كان يعتقد هؤلاء أنها قد تشكل وعياً إسلاميا في المقاومة، لذا حاولوا احتواءها حتى لا يستشري أثرها على بقية المناطق الإسلامية المحتلة من الاستعمار الأوروبي.

9- شارل فيرو، الحوليات الليبية، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1994،ص 500.

10- المصدر نفسه، ص 529.

وقد حظي الشيخ عبد السلام الأسمر بعدة صفحات عند الصحفي الفرنسي المراسل لجريدة الزخرفة الفرنسية، جورج ريمون الذي زار مدينة زليتن سنة 1912، حيث أورد وصفاً سحرياً لجمال وتنسيق مباني المدينة التي تحيط بها أشجار النخيل وشبهها بإحدى مدائن أساطير ألف ليلة وليلة. وارتبطت هذه المدينة بوجود ضريح الشيخ الأسمر بالمسجد الذي يحظى بمكانة عالية بين السكان ويقول إنهم كانوا يستغيثون به في كل لحظة ويلفظون اسمه مع كل عبادة. ووصف المسجد بالهيبة وقد زين بقباب صغيرة شديدة البياض. وتحدث جورج ريمون عن ولادة الشيخ في ذلك بقوله ولد في القرن الحادي عشر، وذكره الصحيح لنسبه أنه ينحدر من الأشراف لكنه يخطئ حين يذكر أن والد الشيخ عبد السلام كان من الرقيق، وهنا صحح الباحث مصطفى بن رابعة ما اختلط على الصحفي لما سمع الناس يصفون الشيخ بالأسمر فاعتقد أنه أسود من أصل زنجي.

ثم يستطرد جورج في ذكر بعض الخوارق والكرامات ومكارم هذا الولي من أفواه الناس، منها ما هو مقتبس من السيرة النبوية أو من الصحابة وهي لا تخلو من المبالغة ونسج من خيال العامة المتلقين بشيخهم. ويختتم قوله أن قابل بعض العائلات بالمدينة التي تنحدر من ذرية (عبد السلام الأسمر) وتحتفظ هذه العائلات بمجلد ضخم يضم قصة حياته[11].

والمصدر الثاني يمثل مدرسة الاستشراق الإيطالية التي تمثل ثلة من الرواد. ويعد أيتوري روسي من أبرز المستشرقين الإيطاليين، وقد تناول تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911 ورغم موسوعية المؤلف وتناوله للأحداث الصغيرة والكبيرة، لكنه لم يرد ذكر الشيخ الأسمر أو دور الزاوية إلا في هامش صفحة 186 حين جاء بأسطورة حول مراد آغا، يزعم أنه نقلها عن البرموني في روضة الأزهار، فهو ينقل رواية عن ظلم هذا الحاكم لأحد الأولياء الصالحين، فما كان من سيدي عبد السلام إلا أن نقم على الحاكم ودعى عليه!!!، فيقال إن مراد آغا أصيب بمرض لم يشف منه، إلا بعد أن وضعت فوقه عصا الولي عبد السلام الأسمر. وقد بادر مراد آغا فور شفائه بالتوجه إلى

11- جورج ريمون، من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا 1912، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1983، ص 198. انظر كذلك: مصطفى عمران بن رابعة، رسائل الأسمر عبد السلام بن سليم الإدريسي الحسني إلى مريده، دار المدار الإسلامي، 2003، ص 16.

زليطن لزيارة سيدي عبد السلام، ومكث بها سبعة أيام هو ومرافقوه دون أن يتمكن من مقابلة الولي الذي استقبله في آخر الأمر ملتحفاً بملابسه، ولا يلمح وجهه إلا بمشقة، وقد أغمي على الولي وظل على هذه الحال يومين وحين استيقظ قال لابنه عمران «هؤلاء الأقوام سم زعاف، وفي كل المرات التي توقفتها بطرابلس أو بغيرها تجنبت الوقوف بأبوابهم إلا لضرورة وما ومن مرة قابلتهم إلا واعتراني مرض ثم تساقط جلد الولي كما يتساقط جلد الثعبان»، ويضيف البرموني أن مراد آغا قد عاد بعد ذلك إلى زيارة الولي وأخذ عنه (التلقين) وتعهد بعدم الإضرار بأحد من الناس، وأصبح مراد الحاكم مشهوراً في عصره وكان يعيش بعمل يديه ويخيط الملابس وكان عادلا[12].
وربما قد تشبه بالنبي داود عليه السلام، ويذكرنا بغاندي وطريقة حياته أثناء مقاومته للاحتلال الإنجليزي. في الحقيقة نحن لا نهتم كثيراً بمدى صحة أو بطلان هذه الأسطورة وغيرها، لكن انتقاءها والتأكيد عليها في هذا المصدر له علامات استفهام ودلالات تتطلب نقاشها، وكأن الشيخ عبد السلام لم يقم بأي نشاط علمي واجتماعي خصوصاً دوره البارز في التوفيق والإصلاح بين القبائل في نزاعها وخصوماتها، لم يرصد لنا المستشرق سوى غضب عبد السلام الأسمر على الحكام. وحتى إن صحت دعوة الشيخ تجاوزاً، فلماذا لم يتعظ بها بقية الحكام الأتراك الذي استبدوا وظلموا الناس، هذه أمور لا يقبلها عقل، وهل يستطيع إنسان حتى وإن كان ولياً صالحاً أن يتجبر على السلطان والحاكم في كل العصور.

ومن خلال ما سجله الباحثون الإيطاليون فقد تبين أن الحكومة الإيطالية غداة استعمارها لليبيا، كانت خبرتها عن البلد محدودة جداً، وقد ظل أغلب الباحثون والدعاة من الاستعماريين والصحفيين بحجة تغطية جهلهم، يرددون معلومات كلاسيكية عتيقة تدخل في إطار الأساطير والأدب الخيالي والموروثات القديمة التي لا تخلو منها أية أمة. وبعد الهزائم المتكررة التي لاقتها القوة العسكرية الإيطالية من قبل المقاومة الليبية، قامت الحكومة الإيطالية بإجراء مسح اجتماعي لإدراك طبيعة التركيبة الاجتماعية

12- إيتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911 تعريب خليفة التليسي، دار الثقافة، لبنان، بيروت، 1973، ص 186. وقد تصفحنا كتاب كوستانزيو برنيا، طرابلس من 1510-1850، ترجمة خليفة التليسي نشرته دار الفرجاني سنة 1969، ورغم أن المؤلف تناول عصر الشيخ عبد السلام الأسمر لكنه لم يذكر لا من قريب ولا من بعيد أي ذكر للحياة الثقافية في ليبيا، في حين أنه ركز على الأحداث السياسية وكل ما يتعلق بشؤون المسيحيين لكونه راهباً!!!!!

البشرية والثقافية وكيفية توظيفها في السيطرة على هذا الشعب من خلال اتباع سياسة فرق تسد، ومن أهم ثمرات تلك الجهود ما جمعه هنريكو دي أغسطيني حول السكان في ليبيا، والذي يعد مصدراً هاماً لتأصيل القبائل وشيوخها، لكن معلوماته ومقاربته غير قطعية، والذي يهمنا هو أن مؤلف هذا الكتاب اعتمد على المصادر المحلية (المخطوطات)، نذكر منها كتاب الخروبي في مناقب بعض شيوخ عصره، وكتاب المكي (البحر الكبير)، والبرموني في كتابه (الديوان في مناقب نجل سليم بن عمران)، و(روضة الأزهار)، ورحلة الشيخ أبي راوي وكتابي الشيخ عبد السلام بن عثمان (فتح العليم والإشارات لبعض ما بطرابلس من المزارات). ويذكر أغسطيني نسب المرابطون والأشراف لقبائل الفواتير وأولاد الشيخ بزليطن ويضع لهم شجرة نسب كاملة[13].

وفي مصدر للمؤلف ليونارد ابلتون الذي تناول سياسة التعليم الإيطالية إزاء العرب الليبيين، تناول المؤسسات التعليمية الإيطالية بشرح موسع، ولكنه ذكر المؤسسات ذات الصبغة الاجتماعية الجماعية الأهلية في سطور باهتة لا قيمة لها، وأشار إلى أنها لم تتمتع بالخدمات التي كان يقدمها مجلس المدينة في طرابلس (الحكومة الإيطالية)، وقد اصطلح الإيطاليون على تسميتها بـ(المؤسسات الأقل شأناً) وشملت عدة مدارس منها: مدرسة الفنون والصنائع ومدرستين للأوقاف، إلى جانب عدد من المدارس الإسلامية ذات طابع علمي واجتماعي، وكان عدد المدارس خمس، وهي متصلة بمساجد منها « أحمد باشا القرمانلي، ودرغوت باشا، ... وفي زليتن سيدي عبد السلام الأسمر ... إلخ »[14].

ولعل ما تواتر عن الشيخ عبد السلام الأسمر وما نسب إليه من الخوارق، وما نسجه خيال الناس الذي نسب إليه باطلا، تم توظيفه من قبل السلطات الإيطالية في كثير من المواضع والظروف لتحقيق بعض الأغراض والأهداف التي تمكنها من إلهاء الأهالي عن الأمور السياسية، فحينما تم نفي العديد من الليبيين نحو الجزر الإيطالية قسراً على متن السفن وكانت الحرب العالمية الأولى على أشدها في البحر المتوسط، كانت الغواصات الألمانية تطارد السفن الإيطالية باعتبارها أهدافاً عسكرية، وفي أحد الرحلات

13- هنريكودي أغسطيني، سكان ليبيا، تعريب خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب. 1978، ص 16.

14- ليونارد ابلتون، سياسة التعليم الإيطالية إزاء العرب الليبيين 1911-1922. ترجمة عبد القادر مصطفى المحيشي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1999، ص 66.

شعر قائد السفينة أن هناك خطراً قادماً وطلب من المنفيين الذين ينتمون للشيخ عبد السلام الأسمر المرابط أن يدعوا بنجاة السفينة من العدو وتصادف الدعاء بنجاة السفينة.

ومن مظاهر اهتمام السلطات الإيطالية بالزوايا والطرق الصوفية، أنها كانت تميز بين التي كان يشتم منها النزعة السياسية والناهضة للاستعمار بوقف نشاطها ومحاربة ومصادرة ممتلكاتها، وبين الطرق السلمية التي تهتم بالأذكار والمدائح والجانب التعليمي الديني دون الخوض في الأمور السياسية أو نقدها، فكانت تتلقى الإحسان والدعم المادي والمعنوي حتى يتم احتواؤها وتوجيهها وفق سياستها، أو تجاهلها طالما لا تشكل خطراً، بل هناك من الطرق من كانت تشارك في الاحتفالات، ولعل زيارة رئيس الحكومة الإيطالي موسيليني سنة 1935، التي بدأها من الحدود الشرقية وحتى مدينة طرابلس شهدت خروج شيوخ الزوايا ومريديهم في استقباله بالدفوف والطبول والأعلام والزينة لتقديم ولاء الطاعة[15].

الخلاصة

من خلال استقرائنا للمصادر التاريخية المتوفرة والمتاحة، التي تناولت الشيخ عبد السلام الأسمر وزاويته، فإننا نجد أنها لا تقدم صورة واضحة وموضوعية عن طبيعة الحياة الثقافية في ليبيا، وهذا التجاهل يبدو من خلالها ظهور النزعة العدائية لأي مظهر ثقافي إسلامي إيجابي من قبل أغلب المؤرخين الغرب، في المقابل نجدهم يتناولون الطرق الصوفية في جانب الدروشة واختلاق الخرافات والقصص الغيبية وأحيانا الملفقة.

15- صلاح الدين حسن السوري وآخرون، ليبيا والغزو الثقافي الإيطالي، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي 1911-1943، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1998، ص 461.

الملاحق

مـن خـلال رصـدنا للمـصادر الأجنبـية المترجمة التي تم الاطلاع عليها وهي لم تذكر شيئاً عن الشيخ عبد السلام الأسمر أو زاويته.

1. يعتبر مخطوط جيرار البروفنصالي من المصادر التي عاصرت العهد العثماني الأول خـلال مـدة أسـره في مدينـة طـرابلس لمـدة عـشر سـنوات، ورغم حجم صفحات الكـتاب الـتي تجـاوزت 600 صـفحة تحـدث بإطـناب عـن الأوضـاع الـسياسية والقرصنة، لكنه لن يذكر كلمة واحدة عن الحياة الثقافية في ليبيا، وهذا راجع لحقده على الإسلام ونبيه، فلا نتوقع منه أن يشيد بدور الزوايا والعلماء المسلمين.
2. أ.ج. كاكـيا، ليبـيا في العهـد العثمانـي الثانـي، 1835-1911، ترجمة يوسف أفندي العسلي، طرابلس، 1946،
3. مابل لسن تود، أسرار طرابلس، 1985، لندن؟؟؟؟
4. ايتلو موري، الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا، ترجمة خليفة التليسي، 1971.
5. بالـو مالتيـزي، ليبـيا أرض الميعاد، ترجمة عبد الرحمن العجيلي، منشورات مركز جهـاد الليبـيين للدراسات التاريخية، 1979، ص 513. لم يتحدث ولو بكلمة واحدة عن عبد السلام الأسمر، بينما يتناول بشيء من الاقتضاب عن الحركة السنوسية التي تقاوم الاستعمار.
6. ماتويـزو، رحلـة إلى طـرابلس وبـرقة، تـرجمة جمعـة عطـية حـسين المحفوظـي، منـشورات جامعـة قاريـونس، 2002، ص247.، تـناول هـذا الـرحالة المـدن الأثرية الـرومانية علـى امـتداد الـشاطئ مـن طـرابلس حتى برقة، وحين مر بمدينة زليطن، اسـترعاه الـبرج الروماني القديم، ولم يلاحظ ضريح الشيخ عبد السلام الأسمر، فيما يذكـر بعـض العادات السيئة التي يمارسها بعض السكان كاللعب بالسكاكين بمهارة فائقـة ويطـبقون ذلـك عمليـاً وربمـا يتعلق ذلك بأحد الطرق الصوفية التي يمارس بعض مريديها مثل هذه الحركات البهلوانية.
7. كوسـتانزيو بـرنيان طـرابلس مـن 1510 إلى 1850، ترجمة خليفة التليسي، الناشر الفرجانـي، طرابلس، ليبيا، 1969، ص 375. المؤلف رغم كونه قسيس تناول أحداثاً هامـة في تـاريخ الـبلاد منذ قدوم الأسبان حتى منتصف القرن التاسع عشر، لكنه لم

يتطرق بذكر شيء عن عبد السلام السمر ولا زاويته.

8. انجيلوا ديل بوكا، الإيطاليون في ليبيا، ترجمة محمود علي التائب، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1995، عدد الصفحات 638. تناول فيه المؤلف الأحداث في ليبيا منذ بداية العهد الفاشي وحتى قيام ثورة الفاتح سنة 1969، وخصص نشاط المعمرين الإيطاليين بشيء من التفصيل ورغم ذكره لصراع الطرق الدينية والإيطاليين، وقد عرج على الاحتفال الذي لقيه موسوليني من قبل الزوايا لكنه لم يتعرض لذكر زاوية عبد السلام الأسمر والتي لا تبعد عن منطقة الدافنية بأقل من عشرة كيلومترات حيث تحتل الجالية الإيطالية أخصب مناطق زليتن.

9. Jean- Louis Triaud, La légende Noire de la Sanusiyya, une confrérie musulmane Sharaienne sous le regrad Français ,1840-1930, éditions de la Maison des science de l'homme, paris, I-II, 1995, pp 1146,

يعتبر المؤلف من المتخصصين الفرنسيين المعاصرين في الطرق الصوفية في أفريقيا، وقد قام بدراسة عميقة عن أبعاد وتطور الصراع بين الفرنسيين والسنوسيسن السياسي والفكري لحوالي قرن من الزمن، (1840–1930)، تكلم عن الطريقة المدنية، التي ظهرت في مصراتة، لكنه يغض الطرف عن الطريقة العروسية في زليتن.

10. ن.إ. بروشين، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام 1969، ترجمة عماد حاتم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005، عدد الصفحات 559. ذكر المؤلف معلومات عن الطريقة السنوسية وأطلق عليها الجمعية وشدة مقاومتها للغزو الإيطالي، لكنه لم يذكر شيئاً عن أية طريقة أخرى، رغم شرحه لمفهوم المرابط والخوارق الخ.

11. ومن خلال اطلاعنا على ما كتبه مصطفى عبد الله بعيو، في مؤلفه (المختار في مراجع تاريخ ليبيا)، الدار العربية للكتاب، أورد ملخص في الجزء الأول ص 75:

Depont,Octave et Copploani,Xavier. Les confrerires religieuse Musulmane. A;ger, Typographe et litographie. Adolphe, Jourlan, imrimer-Libraire-Editeur, 1897 XXVII. 576 pp.

تحدث المؤلفان عن الطرق الدينية الإسلامية وحاولا تفسير وجهة النظر الأوربية اتجاه سلوك المسلمين حتى أواخر القرن التاسع عشر. وركز المؤلفان على انتشار الطرق الصوفية في الجزائر وفي ليبيا من بينها الطريقة الساعدية، والعروسية، والسلامية، والزروقية، والمدنية. وحين بحثنا في مكتبة مركز جهاد الليبيين وجدنا العنوان مطابقا لما ذكره مصطفى بعيو، لكن المؤسف له أن الكتاب المتوفر عبارة نسخة مصورة قليلة الصفحات تتحدث عن الطريقة السنوسية دون ذكر لأية طريقة صوفية أخرى؟

والكتاب الأصلي موجود في جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك تحت رقم D 92 898.798